تبرز أهمية هذه السيرة في أنها تسلط أضواء كاشفة على مرحلة تاريخية هامة من حياة دولة المماليك البحرية في عهد الظاهر بيبرس.

تاريخ الملك الظاهر
عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد
٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م

وقد اعتمد مؤرخ السيرة في مصادره على مشاهداته ومعلوماته الخاصة دون اللجوء إلى روايات المؤرخين المختلفة، فاستطاع بذلك أن يكشف لنا عن حوادث هامة في حياة الملك الظاهر من النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية.

يشير الكاتب في مستهل حديثه إلى أن السيرة لم تصلنا كاملة، بل فُقد الجزء الأول منها، ولم نحظ بغير الجزء الثاني، والذي تناول حياة السلطان في الفترة الواقعة ما بين ٦٧٠ - ٦٧٦هـ/ ١٢٧٢ - ١٢٧٨م، وبالتالي الأحداث مُرتبة على المنهج الحولي (التأريخ حسب السنين)، وهو في تأريخه هذا يذكر الحادثة مع الشهر واليوم الذي حدثت فيه، لكن ما يهمنا في هذه السطور هو الوقوف على مآثره وفتوحاته وعلاقته بالروم والتتر، وما ترتب على ذلك من اتساع حدود مملكته وانتشار العدل في ربوعها.

ففي سنة سبعين وست مئة - على سبيل المثال - توجه السلطان إلى الشام، فلما حل بها ركاب السلطان رحل عنها إلى

● تحقيق: أحمد حطيط
● عـرض: فاطمة عبد الباسط
● الناشـر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ١٩٠، ٢٠٠٩م

مصر، كما شن الغارات على عكا فخرجت إليه الرسل يطلبون الصلح، فتمَّ الاتفاق على الهدنة والصلح، ثم سار إلى دمشق فدخلها أيضًا.

وفي سنة ٦٧١هـ، وصل إليه وهو بالشام أن فرقة من التتر قصدت الرحبة، وهي مدينة غربي الفرات، ثم عادوا من الرحبة، ونزلوا على البيرة، وهي قلعة حصينة شمالي الفرات، فسار السلطان إلى حمص، ثم سار حتى وصل إلى الباب من أعمال حلب، ثم سار حتى وصل إلى شط الفرات، فتقدم للعسكر بخوض الفرات، فوقعوا على التتر فاستلُّوا أرواحهم من أجسامهم طعنًا وضربًا، وأسروا حوالي مئتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل، ولما وصل للذين على البيرة خبر هذه الواقعة رحلوا عنها وتركوا ما لهم من الأسلحة والعدد والأمتعة، ونجوا بأنفسهم، فلما سار إليها الملك الظاهر خلع على مستحفظيها وحماتها مئة ألف درهم.

ثم رحل قاصدًا دمشق وعند اجتيازه لحمص، قام بعمارة الدور التي بقلعة حمص، ثم رحل منها متوجهًا إلى مصر مرة أخرى، وقد كانت طائفة من الإسماعيلية انقلبوا بقلعة القدموس على واليها وقتلوه، ومن بقلعة المينقة وقلعة الكهف، فبعث السلطان إليها نائبًا وطلب ممن في القلعة تسليمها على أن يعوضهم عنها إقطاعًا بمصر فأجابوه، وبذلك استولى السلطان على ما بقي من قلاع الإسماعيلية.

وجلس السلطان بدار العدل التي تحت القلعة لرفع المظالم وإنصاف الضعفاء.

وفي السادس والعشرين من محرم، توجه السلطان في جماعة من أعوانه قاصدًا الشام، فلما وصل عسقلان بلغه أن أبغا بن هولاكو وصل إلى بغداد، فكتب إلى القاهرة، واستدعى عسكرًا، فخرج منها أربعة آلاف فارس قاصدين الشام، وعاد السلطان إلى القاهرة، وقام بفرض جباية على الرعية، فلما أظهروا العجز وتحقق السلطان من عجزهم رجع عما طلبه منهم.

وفي بداية عام ٦٧٣هـ، وصل الملك المنصور **ناصر الدين بن الملك المظفر محمود** صاحب حماه إلى القاهرة، فتلقاه السلطان الظاهر بالقاهرة، وبالغ في إكرامه واحترامه، ثم توجه السلطان إلى الكرج؛ لأنه علم بوقوع برج فأراد أن يكون إصلاحه في حضوره، ثم عاد إلى مصر، والتقى به الملك المنصور في طريقه عائدًا إلى الشام.

ويذكر المؤرخ أنه قد انكسرت الشواني (دار صناعة السفن في القاهرة)، وأُسر من كان فيها من الرؤساء والرجال، وقد امتنع السلطان من فدائهم، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك العلائي يأمره أن يدبر حيله لخلاص الرؤساء والرجال، فكتب عز الدين إلى رجل من الفرنج المقيمين بعكا ووعده إن هو سعى في خلاصهم أن يعطيه ألف دينار، فتحايل هذا الرجل ودسَّ إليهم مناشير قطعوا بها شباكًا كانت في البرج الذي هم محبوسون فيه، ثم خرجوا من الباب ليلاً فوجدوا خيل البريد مُعدة على الساحل لهم فركبوها ووصلوا إلى القاهرة.

وقد توجه السلطان وولده الملك السعيد إلى جهة البحرية للصيد في الحراريق، ولما قضى وطره من الصيد دخل الإسكندرية، فشُكي إليه من واليها أمورًا أوجبت أن يضربه ويهدم له بستانًا كبيرًا، وأقره على الولاية فقط.

ثم توجه السلطان إلى الشام وصحبته العساكر قاصدًا بلدسيس فدخلوها وخرجوا منها بعد أن قتلوا من الأرمن وأسروا خلقًا لا يُحصى، وغنموا من البقر والغنم ما بيع بالمجّان، ورحل السلطان إلى دمشق، وأقام بها إلى أن دخلت سنة أربع وسبعين.

حيث تم فتح حصن القصير، وهذا الحصن بين حازم وأنطاكية، ثم توجه عساكر المغول والروم قاصدين البيرة، ولكنهم بعدما أقاموا بها

أجهدهم القتال، وفنيت العُدد والرجال، فرحلوا عنها بعد أيام.

وكان السلطان لما بلغه وهو بدمشق نزول التتر على البيرة قد أنفق على تجهيز العساكر فوق الست مئة ألف دينار، ثم خرج من دمشق يوم السبت، وهو يوم رحيل التتر عن البيرة فاتصل خبرهم به، وترادفت عليه الأخبار بتفريق شملهم، فعاد إلى دمشق فدخلها، ثم خرج منها ومعه جميع العساكر، ووصل إلى القاهرة، وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا لم يُشهد مثله لأحد من الملوك الإسلاميين.

وفي هذا الوقت، وفد على السلطان شكندة ابن عم داود ملك النوبة، متظلمًا منه ووافق ذلك غرضًا في نفس السلطان الظاهر؛ لأن داود كان قد أغار على صرح عيذاب في سنة إحدى وسبعين، فلما استقر ركاب السلطان بالقلعة المحروسة أمر الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني، والأمير عز الدين أيبك بالمسير إلى النوبة، ومعهما ثلاث مئة فارس، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود، وأخوه جنكو، ولكن عساكر السلطان هزموهم هزيمة ساحقة.

وعلم السلطان بعدها أن جماعة من العُشران الذين استخدمهم بحصن الكرك سولت لهم أنفسهم أن يثبتوا في الحصن، ويقتلوا من فيه من نواب السلطان، فخرج السلطان من القاهرة قاصدًا الحصن، مشمرًا عن ساق الجهاد حتى دخله، ثم استدعاهم وأمر بالقبض عليهم وشنقهم، فشفع فيهم من كان في خدمته من الأمراء؛ فعفا عنهم سوى ستة أنفس، فإنه قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفاهم إلى مصر.

ولما حل ركاب السلطان الملك الظاهر بدمشق تواترت عليه الأخبار بوصول أبغا بن هولاكو إلى أردمة، فجمع السلطان أرباب مشورته فوقع الاتفاق على الخروج من دمشق بالعساكر

سيرة الملك الظاهر بيبرس تسلط أضواءً كاشفة على مرحلة تاريخية هامة من حياة دولة المماليك البحرية

وملاقاته، حيث كان من البقاع، وفي أثناء هذا العزم وصل إلى أبوابه العالية رجل من التركمان، أخبره أن أبغا أوغل في الهرب، وعندما شعر السلطان بالمرض شكا ذلك للأمير شمس الدين سنقر الألفي السلاح دار، فأشار عليه بالقيء فاستعصى عليه وزاد عليه المرض والألم، واشتكى بحرارة في بطنه فصنع له بعض خواصه دواء لم يكن عن رأي طبيب، فلم ينجح وتضاعف ألمه فأمر بإحضار الأطباء، فلما رأوه أنكروا على من صنع له الدواء، وأجمعوا على أن يعالجوه بدواء مسهل يدفع ما في جسمه من الفضلات، فسقوه، فلم ينجح، ثم أعطوه دواءً آخر كان سببًا في الإفراط في الإسهال، ثم جهده المرض إلى أن قضى نحبه، وانتقل إلى الدار الآخرة يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم.

وتم اختيار دار العقيقي بدمشق لدفن السلطان، فتم شراء هذه الدار من ملاكها، وتم تغيير معالمها، وبُنيت مدرسة يُدرس فيها مذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، كما بُنيت فيها قبة شاهقة يكون بها الضريح.

فلما تمَّ ذلك، خرج الأمر العالي السلطاني الملكي من السلطان السعيد ناصر الدين بن السلطان الظاهر للأمير علم الدين سنجر والطواشي الأجل الزاهد صفي الدين الهندي بحمل السلطان من القلعة إلى التربة ليلاً على أعناق الرجال.

ذكر ما يزهو على زَهرَ الخميلة من جمل سيرته الجميلة

وهي مفصلة في أربعة عشر بابًا على النحو التالي:

١ - ذكر اتفاقات اتفقت له عجيبة:

فكل مكان خرج منه خائفًا مترقبًا ملكه اللهُ ناصيته، وأطاع له عاصيته، منها أنه خرج من حصن الكرك سنة ٦٥٧هـ، عندما شعر بيبرس أن صاحب الكرك يريد به وبمن معه شرًا، فهرب وعاد إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، فلم تطل الأيام حتى عاد إليه مالكًا عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، ويذكر أيضًا أنه خرج من مصر لما قُتل الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار فارًا بنفسه في شرذمة من أبناء جنسه فقضى الله في عوده إليها مالكًا أسوة بنبيه (ﷺ)، حيث أخرجه قومه من مكة فأعاده إليها، وقد أناله بملكها فوق ما تمناه في حال عسرته.

٢ - ذكر محبته للفقهاء والفقراء وتواضعه:

لما علمَ السلطان أن أفضل ما يتقرب به المتقرب إلى الله العظيم تعظيم أوليائه ثابر على الوفود عليهم والتردد إليهم والقيام بحقوقهم، بالإضافة إلى إحسانه إلى الفقراء، فضلاً عما اتصف به السلطان من التواضع.

٣ - ذكر عدله وانقياده للشرع:

لما ملك - تغمده الله برحمته - أسبغ ملابس العدل على الرعايا واستسنَّ بسُنَّة العُمرَين في جميع القضايا عملاً بقول الرسول (ﷺ): "عدل يوم يعدل عبادة أربعين سنة".

ويذكر أن بنت الملك العزيز - أخت الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الشام - كان قد عقد عليها الملك السعيد نجم الدين إيل غازي بن أرتق على صداق قدره ثلاثون ألف دينار مصرية، فمات عنها ولم يدخل بها، وكان الملك المظفر قد احتاط على أملاك الملك السعيد بحكم استيلائه عليها، إلى أن ملك السلطان الملك الظاهر، فرفعت إليه قصة هذه الفتاة، وسألته أن يُفرج عن الأملاك في مبلغ صداقها، فأفرج لها عن الأملاك فبيعت وقبضت ثمنها.

ومن عدله أنه لما قبض على قاضي القضاه شمس الدين محمد بن العماد الحنبلي علم السلطان أنَّ على الأخير ودائع لجماعة من التجار البغادرة، وقد ماتوا فلما حُملت الودائع ذكر له المولى الصاخب الوزير بهاء الدين أن أصحاب الودايع أحياء، فأمر السلطان الأمير بدر الدين الخازندار أن من ادَّعى شيئًا وذكر علامته الصادقة عليه يُسلم له بعد أن يأخذ منه زكاة مُدة كونها عند القاضي، فرجعت إلى أصحابها.

٤ - في ذكر عفوه وصفحه:

من صفات الملك الظاهر التي ازدانت بها سلطته العفو والصفح؛ ذلك أنه لما قُتل الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب أجمع جماعة من خشداشيته البحرية على قصده وقتله، فحماه الله منهم بعد أن جرحه بعضهم، فلما ملك السلطان الظاهر لم يُؤاخذهم، بل عفا عنهم وأقطع إليهم.

ويُذكر أيضًا أنه لما قُتل الملك المظفر تقدم إليه الأمير عز الدين أيبك، وأفحش له في القول وجرَّد سيفه يريد قتله، فلما ملك السلطان لم يكترث بما فعله، بل زاد في إقطاعه.

٥ - وفاؤه ومكافأته على الحسنى بأضعافها:

فمن وفائه الذي عجزت الألسنة عن شكره ما صنعه مع البيت الأيوبي، وهم أولاد الملك العادل، وأولاد الملك الناصر، فإنهم كانوا في كفالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب الشام، فلما انتقل الملك عنه إلى الملك المظفر، ثم إلى السلطان الظاهر آوى كبيرهم ورحم صغيرهم، وأجرى عليهم الرواتب والوظائف وشملهم بظل إحسانه.

٦ - ذكر مواهبه وعطاياه:

يذكر أنه لما تولى الملك خلع ووهب من الذهب المصري، ومن الأمتعة والأسلحة مالا يدخل تحت

حصر، ثم لما عزم على التوجه إلى الشام في أول توجهه إليه فرق في الأمراء من خمسة آلاف دينار إلى خمس مئة دينار، وخلع على من في طاعته من الأمراء من الأمتعة الفاخرة، وأنواع الوبر كما رتَّب لهم في كل سنة السيوف المحلاة والحوايص الذهب، والخيل المسومة، وإن كان في هذا ما فيه من الإسراف وإهدار أموال المسلمين التي سوف يُسأل عنها هو ومن معه.

٧ - ذكر ما اعتمده من أفعال البر:

لما علم أن أفعال البر مما تقربه إلى الله زلفى ثابر عليها مُثابرة يرجو بها مضاعفة الثواب، ويتخذها ذخيرة يجدها يوم الحساب، فكان (رحمه الله) ملازمًا للصلوات الخمس في أوقاتها سفرًا وحضرًا، وكلّف سائر مماليكه وحاشيته القيام بها والمحافظة عليها، ورتب لكل طائفة من مماليكه معلمًا يعلمهم القرآن وإمامًا يصلي بهم.

وذُكر أنه لم يشرب خمرًا قط مدة حياته، وقنع من كل مسكر، وحذّر منه، وعهد إلى مماليكه بألا يمكنوا أحدًا من تعاطيه البتة، وساوى في المنع بين أمرائه ورعيته، كما يذكر أيضًا حرصه على القيام بفريضة حج لبيت الله الحرام، كما أنه ألزم نفسه على المواظبة على الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته.

ومن أفعال البر أيضًا، ما قرره ورتبه في البيمارستان بالمدينة النبوية من الأطباء والأدوية، بالإضافة إلى ما يحمل إلى مكة والمدينة من الزيت والشمع الذي يُوقد فيهما، ومن القمح والدقيق الذي يُوزع على الضعفاء والمساكين من أهلها المجاورين بها.

وقد أجرى وقفًا على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر، وكذلك وقف على قبر خالد بن الوليد (رضي الله عنه) بحمص بعد أن أصلحه وقفًا يُصرف منه راتب المؤذن والإمام.

٨ - في ذكر هيبته ومنزلته من القلوب:

يُذكر أن جماعة من التجار خرجوا من بلاد

كان السلطان الظاهر بيبرس حريصًا على التقرب إلى العلماء والأولياء وفاء بحقوقهم، وتقربًا إلى الله بهم

العجم قاصدين أبواب الملك الظاهر، فلما مروا ببلاد سيس منعهم صاحبها من العبور عليه، فهرب منهم مملوك إلى حلب، واجتمع بالأمير **نور الدين علي بن مجلي**، وأخبره بحالهم فكتب إلى السلطان، وأخبره بما حدث فكتب السلطان إليه يأمره أن يكتب إلى صاحب سيس على ما توعده به السلطان الظاهر أطلقهم، ومن دلائل هيبته أن كتب التتر كانت تأتي إلى الروم يأمرون فيها بأن يُمنع التجار من قصد بلاد سلطان الظاهر ويتوعدونهم وهم مع ذلك لا يكترثون بأوامرهم، خوفًا من سطوات الملك الظاهر.

٩ - ذكر عزمه وحزمه:

كان (رحمه الله) يُمضي ما وقع عليه عزمه ورأيه في أسرع ما يمكن من الأوقات، ويبادر الفرص خوف الفوات، ولا يدع أمر اليوم للغد.

ومن عزمه أنه ما حدث أمر إلا كان المباشر له بنفسه، سواء جلّ خطره أو قلّ، وكثيرًا ما كانت الأخبار ترد عليه وهو بالقاهرة بحركة متوهمة من العدو، فيأمر العسكر بالخروج، وكانوا زهاء ثلاثين ألف فارس فلا يبيت منها فارس في بيته، ومتى خرج مع عساكره تقدّمها فيكون هو الطليعة لها.

١٠ - ذكر مصابرته للحرب ومباشرته لها:

بذل نفسه النفيسة في مواطن القتال، وسبق الأقران إلى النزال متيقنًا من الله النصرة، مصداقًا لقول الله (سبحانه وتعالى): ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧).

ومن دلائل ذلك، توجهه إلى بلاد الروم

للقائهم واستئصال شأفتهم؛ حتى لا تهبّ للمسلمين ريح الرعب من اللقاء بهم، وهذه الواقعة شفت غيظ الإيمان من الكفر، فبلّغه الله نهاية الآمال، ويكفيه فخرًا في دنياه وذخيرة له في أخراه ما شوهد منه عند ملاقاته التتر أيام الملك المظفر (قطز) على عين جالوت، وفعله بهم كما فعل طالوت بجالوت وبطشه وقهره.

١١ - ذكر ما فتحه من البلاد والحصون:

لما علم - تغمده الله برحمته - أن عز الملوك بتملك البلاد والحصون، وأن استنقاذ الحُصون من الكفار مما يزين الدفاتر، ويكون عند الله من أعظم الذخائر، وأن الإسلام يغار على المعاقل، ويبذل في صيانتها النفوس والأموال، عمل جاهدًا على فتح العديد من البلاد والحصون، فالذي فتحت منها عنوة من أيدي الفرنج قيسارية، أرسوف، صفد، طبرية، يافا، أنطاكية، حص الأكراد، حصن عكار.

وعلى سائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحُصون، والذي سار إليه من أيدي المسلمين دمشق وبعلبك، ومجلون وحصون الإسماعيلية، وهي قلعة الكهف والقدموس والمنيقة والعُلَّيقة والرصافة، والذي انتقل إليه عن التتر بلاد حلب الشمالية، وشيزر والبيرة وفتح الله على يديه بلاد النوبة.

١٢ - في ذكر ما كان في يده من الممالك:

لما علم الله إخلاص نيته في طاعته وبذله في إعلاء كلمة الإسلام جهد استطاعته، جمع له من الممالك ما كان متفرقًا في أيدي الملوك الأكابر، ومكن له في أرضه ما لم يمكن للأكاسرة والقياصرة.

وكانت حدود مملكته من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات، وتشتمل هذه المملكة على ولايات وفي كل ولاية قاضي قضاه وعامل حرب وعامل خراج.

١٣ - ذكر ما وفد عليه:

نظرًا لتميزه بالكرم والسخاء وحسن الضيافة، فقد قصده الملوك من الآفاق، وآمنوا بجواره من طوارق الحدثان، واستعاذوا بحماه من نوابق الزمان.

فقد وفد عليه من المدينة الأمير جمال الدين قاسم بن الأمير عز الدين حجاز صاحب المدينة، والأمير جمال الدين محمد بن شيحة أخو حجاز، والأمير ناصر الدين مقبل وأخوه أبو شقر، وغيرهم، ووفد عليه من العراق الخليفة الإمام المستنصر بالله أبو القاسم أحمد أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أمير المؤمنين، والإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد وغيره من الأمراء ليس فقط من العراق، ولكن من سائر البلاد الأخرى.

١٤ - في ذكر مبانيه وأوقافه:

أعمل السلطان فكره في بناء ما قصرت عنه الملوك الأوائل، فبنى من الجوامع والمساجد والمعابد والمشاهد والقصور الرفيعة والمنازل التي ضاهت إرم ذات العماد، وبنى ما هدمه التتر من المعاقل والحصون.

فأنشأ دارًا بقلعة الجبل سمَّاها دار الذهب، أنشأ بين النيل والخليج المصري ضيعة وأسماها المنشيّة، وبنى بها جامعًا، كما أنشأ في الشرقية ضيعة أسماها الظاهرية وبنى بها جامعًا، بالإضافة إلى ذلك قام بعمارة العديد من الجسور والقناطر بديار مصر، كما حفر العديد من الأبحر.

لم يقتصر الأمر في ذلك على مصر فقط، بل امتدَّ نشاطه ليشمل بلاد الشام، فجدد حرم رسول الله (ﷺ)، كما جدد قبة الصخرة بالقدس الشريف، وكان التتر قد هدموا شراريف قلعة دمسن ورؤوس أبراجها، فقام السلطان الظاهر بتجديدها وأنفق فيها حوالي ألف ألف درهم.

بالإضافة إلى ذلك، قام بالعديد من التجديدات والعمائر في صرخد وبعلبك وحصن الأكراد وحمص وحلب، كما أنه أنشأ في كل حصن فتحه من أيدي الفرنج والإسماعيلية جامعًا أو جامعين. ■